من يعول . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع (وربَا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع رِبَانا ، رِبَا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله)[١] .

وفى معركة بدر ، أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم أهل بيته ليحاربوا ؛ لأنه لو لم يخرج أحداً من أهل بيته لقال واحد من الكفار : إنه يحمى أهل بيته ، ولو أن أجر الاستشهاد هو الجنة فلماذا يقدم الأباعد ولا يقدم أحبابه للقتال ؟

لكن ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم أقاربه وأحبابه ، فهو العارف من ربه بأمر الشهادة وكيف أنها تقصر على الإنسان متاعب الحياة وتدخله الجنة . هكذا كانت المحاباة فى صدر الإسلام ، إنها محاباة فى الباقى ، ولم تكن كمحاباة الحمقى فى الفانى .

وحين يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ويضرب على أيدى المرابين فهذه هى الحرب التى يجب أن تقوم ، حرب من الله المالك القادر على المحاربة ، أما الضعاف الذين لا يستطيعون القتال فهم لا يحاربون ؛ لأنهم أمام خالقهم وقاهرهم فلا يقدرون على حربه ولذلك يجب أن تتنبه الدولة إلى مثل هذه الأمور وتقنن تقنينا إسلامياً وبعد ذلك إذا لم تتسع الزكاة المفروضة إلى ما يقوم بأود المحتاجين فلتفرض الدولة ما تشاء لتفى بحاجة المحتاجين .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن أوضح الأمر عقيدة فى قوله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، وتقنيناً للعقيدة فى قوله : « لا إكراه فى الدين » ، وحماية للعقيدة بأمره سبحانه المؤمنين أن يقاتلوا لتكون كلمة الله هى العليا ، وبعد ذلك تكلم الحق عن حماية حركة الاقتصاد فى الإنفاق أولاً فى سبيل الله ، والإنفاق على المحتاجين . يقول سبحانه بعد ذلك .

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ

(١) رواه مسلم فى خطبة الوداع فى حجة الوداع .

أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ
فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

استهلت الآية بتقديم « لله » على ما فى السماوات وما فى الأرض ، والحق سبحانه يقول : « لله ما فى السماوات وما فى الأرض » ذلك هو الظرف الكائنة فيه المخلوقات ، السماوات والأرض لم يدع أحد أنها له ، لكن قد يوجد فى السماوات أو فى الأرض أشياء يدعى ملكيتها المخلوقون ، فإذا ما نظرنا إلى خيرات الأرض فإننا نجدها مملوكة فى بعض الأحيان لأناس بما ملكهم الله ، والبشر الذين صعدوا إلى السماء وأداروا فى جوها ما أداروا من أقمار صناعية ومراكب فضائية فمن الممكن أن يعلنوا ملكيتهم لهذه الأقمار وتلك المراكب .

ويلفتنا الحق سبحانه هنا بقوله : « لله ما فى السماوات وما فى الأرض » وهو يوضح لنا : إنه إن كان فى ظاهر الأمر أن الله قد أعطى ملكية السببية لخلقه فهو لم يعط هذه الملكية إلا غرضاً يؤخذ منهم ، فإما أن يزولوا عنه فيموتوا ، وإما أن يزول عنهم فيؤخذ منهم عن بيع أو هبة أو غصب أو نهب .

وكلمة « لله » تفيد الاختصاص ، وتفيد القصر ، فكل ما فى الوجود أمره إلى الله ، ولا يدعى أحد بسببية ما آتاه الله أنه يملك شيئا لماذا ؟ لأن المالك من البشر لا يملك نفسه أن يدوم .

نحن لم نر واحداً لم تنله الأغيار ، ومادامت الأغيار تنال كل إنسان فعلينا أن نعلم أن الله يريد من خلقه أن يتعاطفوا ، وأن يتكاملوا ، ويريد الله من خلقه أن يتعاونوا ، والحق لا يفعل ذلك لأن الأمر خرج من يده ـ والعياذ بالله ـ لا ، إن الله يبلغنا : أنا لى ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأستطيع أن أجعل المسألة دولاً بين الناس .

ولذلك نقول للذين يصلون إلى المرتبة العالية فى الغنى ، أو الجاه ، أو أى مجال ، لهؤلاء نقول : احذر حين تتم لك النعمة ، لماذا ؟ لأن النعمة إن تمت لك علواً وغنىً وعافيةً وأولاداً ، أنت من الأغيار ، ومادامت قد تمت وصارت إلى النهاية وأنت لاشك من الأغيار ، فإن النعمة تتغير إلى الأقل . فإذا ما صعد إنسان إلى القمة وهو متغير فلا بد له أن ينزل عن هذه القمة ، ولذا يقول الشاعر :

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

والتاريخ يحمل لنا قصة المرأة العربية التى دخلت على الخليفة وقالت له : أتم الله عليك نعمته . وسمعها الجالسون حول الخليفة ففرحوا ، وأعلنوا سرورهم ، لكن الخليفة قال لهم : والله ما فهمتم ما تقول ، إنها تقول : أتم الله عليك نعمته ، فإنها إن تمت تزول ؛ لأن الأغيار تلاحق الخلق . وهكذا فهم الخليفة مقصد المرأة .

والشاعر يقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة
فكيف آسى على شيء لها ذهبا

إن النفس المالكة هى نفسها ذاهبة ؛ فكيف يحزن على شيء له ضاع منه ؟

والحق سبحانه يطلب منا أن نكون دائما على ذكر من قضية واضحة هى : أن الكون كله لله ، والبشر جميعا بذواتهم ونفوسهم وما ظهر منها وما بطن لا يخفى على الله ، والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تم تسجيله علينا .

إن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه . . فسبحانه يقول :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

والحساب معناه أن للإنسان رصيدا ، وعليه أيضا رصيد . والحق سبحانه وتعالى يفسر لنا (له وعليه) بالميزان كما نعرف في موازين الأشياء عندنا وهو سبحانه يقول :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن حساب الحق دقيق عادل ، فالذين ثقلت كفة أعمالهم الحسنة هم الذين يفوزون بالفردوس ، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كفة أعمالهم السيئة ، فصاروا من أصحاب النار .

إذن نحن أمام نوعين من البشر ، هؤلاء الذين ثقلت كفة الخير في ميزان الحساب ، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور في ميزان الحساب . فماذا عن الذين تساوت الكفتان في أعمالهم . استوت حسناتهم مع سيئاتهم ؟ إنهم أصحاب الأعراف ، الذين ينالون المغفرة من الله ؛ لأن مغفرة الله وهو الرحمن الرحيم قد سبقت غضبه جل وعلا . ولو لم يجيء أمر أصحاب الأعراف في القرآن لقال واحد : لقد قال الله لنا خبر الذين ثقلت موازينهم ، وأخبار الذين خفت موازين الخير عندهم ، ولم يقل لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم .

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر وأوضح لنا أن المغفرة تسبق الغضب عنده ، لذلك فالحساب لا يكتفي الحق فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق ، لذلك يطمئننا الحق سبحانه فيقول :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كفة الميزان ، ويطمئننا أيضا على أنه ـ سبحانه ـ سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار وأننا سنأخذ من حسناتهم

لتضاف إلى ميزاننا ، إذن فالطمأنينة جاءت من طرفين : طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا يُنسى أنه يدخل فى حسابنا ، وطمأننا أيضا على ما أصابنا من شر الأشرار ، وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا .

ونحن نجد فى الكون كثيراً من الناس قد يحبهم الله لخصلة من خصال الخير فيهم ، وقد تكون هذه الخصلة الخيِّرة خفيَّة فلا يراها أحد ، لكن الله الذى لا تخفى عليه خافية يرى هذه الخصلة فى الإنسان ، ويحبه الله من أجلها ، ويرى الحق أن حسنات هذا الرجل قليلة ، فيجعل بعض الخلق يصيبون هذا الرجل بشرورهم وسيئاتهم حتى يأخذ من حسنات هؤلاء ليزيد فى حسنات هذا الرجل .

ومعنى « تبدوا ما فى أنفسكم » أى تصيروا الوجدانيات إلى نزوعيات عملية ، ولكن هل معنى « أو تخفوه » هو ألا تصيروا الوجدانيات النفسية إلى نزوعيات عملية ؟ لا ، فليس لكل شيء نزوع عملى ، ومثال ذلك الحب ؛ إن الإنسان قد يحب ، ولا يجد القدرة على النزوع ليعلن بهذا النزوع أنه محترق فى حبه ، وكذلك الذى يحقد قد لا يجد القدرة على النزوع ليعلن بهذا النزوع عن حقده ، إذن فهناك أعمال تستقر فى القلوب ، فهل يؤاخذ الله بما استقر فى النفوس ؟

إن هذه المسألة تحتاج إلى دقة بالغة ؛ لأننا وجدنا بعضا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقفوا فيها موقفا أبكى بعضهم ، هذا عبدالله بن عمر رضى الله عنهما حينما سمع هذه الآية قال : لئن آخذنا الله على ما أخفينا فى نفوسنا لنهلكن . وبكى حتى سُمع نشيجه بالبكاء . وبلغ ذلك الأمر ابن عباس فقال : يرحم الله أبا عبدالرحمن لقد وجد إخوانه المسلمون مثلما وجد من هذه الآية . فأنزل الله بعدها « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » إلى آخر السورة .

ولنعلم أن نوازع النفس كثيرة ؛ فهناك شيء اسمه « هاجس » وهناك شيء آخر اسمه « خاطر » وهناك ما يسمى « حديث نفس » ، وهناك « هم » وهناك « عزم » ، إنها خمس حالات ، والأربع الأولى من هذه الحالات ليس فيها شيء ، إنما الأخيرة التى يكون فيها القصد واضحا يجب أن نتنبه لها ولنتناول كل حالة بالتفصيل .

إن الهاجس هو الخطرة التى تخطر دفعة واحدة ، أما الخاطر فهو يخطر . . أى يسير فى النفس قليلا ، وأما حديث النفس فإن النفس تظل تتردد فيه ، وأما الهم فهو استجماع الوسائل ، وسؤال النفس عن كل الوسائل التى ينفذ بها الإنسان رغباته ، أما العزم (القصد) فهو الوصول إلى النهاية والبدء فى تنفيذ الأمر.

والقصد هو الذى يُعنى به قوله تعالى : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » وقد وجدنا كثيرا من العلماء قد وقفوا عند هذا القول وتساءل بعض من العلماء : هل الآية التى جاءت بعد ذلك والتى يقول فيها : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » هل هى نسخ للآية السابقة عليها ؟

ولكن نحن نعرف أن الآية هى خبر ، والأخبار لا تنسخ إنما الأحكام هى التى يتم نسخها ، وعلى ذلك يكون القصد والعزم على تنفيذ الأمر هو المعنى بقوله الحق : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فهذا هو الذى يحاسبنا الله عليه .

وعندما يقول الحق سبحانه : « فيغفر لمن يشاء » فمن هم ؟ لقد بين الله من يشاء المغفرة لهم ، إنهم الذين تابوا ، وهم الذين أنابوا إلى الله ، هم الذين قال فيهم الحق :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وتبديل المغفرة حسنة مسألة يجب أن يقف عندها الإنسان المكلف من الله وقفة ليرى فضل الله ، لأن الذى صنع سيئة ثم آلمته ، فكما آلمته السيئة التى ارتكبها وحزن منها ، فإن الله يكتب له حسنة . ولكن الذى لم يصنع سيئة لا تفزعه هذه ، وبعض العارفين يقول : رُبَّ معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا .

إنك لتجد الخير الشائع فى الوجود كله ربما كان من أصحاب الإسراف على أنفسهم فى شىء ما قد اقترفوه وتابوا عنه ولكنه لا يزال يؤرقهم .

يكون الواحد منهم قويا في كل شيء ، إلا أنه ضعيف أمام مسألة واحدة ، وضعفه أمام هذه المسألة الواحدة جعله يعصى الله بها وهو يحاول جاهداً في النواحي التي ليس ضعيفاً فيها أن يزيد كثيراً في حسناته ، حتى يمحو ويذهب الله هذه بهذه . فالخير الشائع في الوجود ربما كان من أصحاب السيئات الذين أسرفوا على أنفسهم في ناحية من النواحي ، فيشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم متجهين إلى نواحٍ من الخير قائلين : ربما هذه تحمل تلك .

لكن الذي يظل رتيباً هكذا لا تلذعه معصية ربما تظل المسائل فاترة في نفسه . ولذلك يجب أن ننظر إلى الذين أسرفوا على أنفسهم لا في زاوية واحدة ، ولكن في زوايا متعددة ، ونتأدب أمامهم وندعو الله أن يعفيهم مما نعرفه عنهم ، وأن يبارك لهم فيما قدموه ؛ ليزيل الله عنهم أوزار ما فعلوا .

وبعض العلماء يرى في قوله الحق : « فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » أن الله قد جعل المغفرة أمراً متعلقاً بالعابد لله ، فإن شئت أن يغفر الله لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل الله سيئاتك إلى حسنات . وإن شئت أن تعذب ـ وهذا أمر لا يشاؤه أحد ـ فلا تصنع الحسنات .

وهذه المسألة تجعلنا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا الإيمان به فإنه يُملكنا الزمام . وبمجرد إيماننا به فنحن نتلقى منه زمام الاختيار ، والدليل واضح في الحديث القدسي : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله ـ عز وجل ـ :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني . إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأهم خيرٌ منهم وان تقرب مني شبرا تقربتُ إليه ذراعا ، وإن تقرب إليّ ذراعا ، تقربت منه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلَةً »[1] .

إذن فبمجرد إيمانك ملكك الله الزمام ، فإن أردت أن يتقرب الله إليك ذراعا ،

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الذكر .

فتقرب أنت إليه شبرا ، فالزمام فى يدك . وإن شئت أن يتقرب الله منك باعا ، فتقرب أنت ذراعا . وإن شئت أنت أن يأتى ربك إليك مهرولاً - جرياً - فأت إليه مشيا . فبمجرد أن يراك الله وأنت تقبل وتتجه إليه ، كأنه يقول لك : لا . . استرح أنت ، أنا الذى آتى إليك .

ولذلك قلنا من قبل فى مسألة الصلاة حين تؤمن - أيها العبد - بالله وبعد ذلك ينادى المؤذن للصلاة ، فتذهب أنت إلى الصلاة ، صحيح أنت تذهب إلى الصلاة المفروضة ، لكن هل منعك الله أن تقف بين يديه فى أية لحظة ؟ . لقد طلب الله منك أن تحضر بين يديه خمس مرات فى اليوم ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً لك - أيها المؤمن - فالله لا يمل حتى يمل العبد .

والإنسان فى حياته العادية - ولله المثل الأعلى - إذا أراد أن يقابل عظيماً من العظماء فإن الإنسان يطلب الميعاد ، فإما أن يقبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد أو يرفض . وإذا قبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد ، فإن العظيم من البشر يحدد الزمن ، ويحدد المكان ، وربما طلب العظيم من البشر أن يعرف سبب وموضوع المقابلة . لكن الله يترك الباب مفتوحاً أمام العبد المؤمن ، يلقى الله عبده فى أى شىء ، وفى أى وقت ، وفى أى مكان ، وفى أى زمان .

حسب نفسى عزاً بأنّى عبد ... يحتفى بى بلا مواعيد ربُّ
هو فى قدسه الأعز ولكن ... أنا ألقى متى وأين أحبُّ

الزمام إذن فى يد من ؟ . إن الزمام فى يد العبد المؤمن . لذلك فالذين قالوا فى فهم « فيغفر لمن يشاء » إن البشر فى أيديهم أمر المغفرة لهم ، فإن شاء البشر أن يغفر الله لهم فإنهم يفعلون أسباب المغفرة ، ويتوبون إلى الله ، ويكثرون من الحسنات ، ومن يريد أن يتعذب فليظل سادراً فى غيه فى فعل السيئات . ثم بعد ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾

عندما نتأمل هذه الآية الكريمة نجد أن الإيمان الأول بالله كان من الرسول صلى الله عليه وسلم : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » . وبعد ذلك يأتى إيمان الذين بلغهم الرسول بالدعوة « والمؤمنون » . وبعد ذلك يمتزج إيمان الرسول بإيمان المؤمنين « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

أى أن كلا من الرسول والمؤمنين آمنوا بالله . إن الإيمان الأول هو إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان أيضاً من المؤمنين بالرسالة التى جاء بها الرسول بناء على توزيع الفاعل فى « آمن » بين الرسول والمؤمنين . وبعد ذلك يجمعهما الله - الرسول والمؤمنين - فى إيمان واحد ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن بالله أولاً ، وبعد ذلك بلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم وآمنا بالله وبه ثم امتزج الإيمان فصار إيماننا هو إيمان الرسول وإيمان الرسول هو إيماننا ، وهذا ما يوضحه القول الحق : « كل آمن بالله » .

إذن فالرسول فى مرحلته الأولى سبق بالإيمان بالله ، والرسول مطلوب منه حتى حين يؤمن بالله أن يؤمن بأنه رسول الله ، ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم : أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكان الرسول إذا ما أعجبه أمر فى سيرته ذاتها يقول : أشهد أنى رسول الله .. إنه يقولها بفرحة .

مثال ذلك ما روى عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : « كان بالمدينة يهودى وكان يسلفنى فى تمرى إلى الجذاذ ، وكان لجابر الأرض التى بطريق رومة فجلست[1]

(١) فجلست : تأخرت الأرض عن الإثمار ، وفى رواية : فخاست : أى خالفت ما كان معهوداً منها من التمر .

فخلا[1] عاما فجاءنى اليهودى عند الجذاذ[2] ولم أجد منها شيئا فجعلت أستنظره إلى قابل ، أى أطلب منه أن يمهلنى إلى عام ثان ، فيأبى فأخبر بذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودى فجاءونى فى نخلى ، فجعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم يكلم اليهودى فيقول (اليهودى) أبا القاسم ، لا أنظره فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قام فطاف فى النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ، فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر فأخبرته ، فقال : افرش لى فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها ، ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام فى الرطاب فى النخل الثانية ثم قال يا جابر ، جذّ واقض فوقف فى الجذاذ فجذذت منها ما قضيته ، وفضل منه فخرجت حتى جئت النبى صلى الله عليه وسلم فبشرته . فقال : أشهد أنى رسول الله[3] .

والحق سبحانه وتعالى يشهد أن لا إله إلا هو :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران) .

إذن فالله يشهد أن لا إله إلا هو ، ورسول الله يشهد أن لا إله إلا الله ، ويشهد أيضاً أنه رسول الله ، يبلغ ذلك للمؤمنين فيكتمل التكوين الإيمانى ، ولذلك يقول الحق عن ذلك : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » . والحق يأتى بـ« كل » ـ بالتنوين ـ أى كل من الرسول والمؤمنين .

ويورد لنا سبحانه عناصر الإيمان : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » . ونحن نعرف أن الإيمان بالله وكل ما يتعلق بالإيمان لابد أن يكون غيباً ؛ فلا يوجد إيمان بمحس

(١) فخلا : تأخر السلف عاما .

(٢) الجذاذ (بكسر الجيم وفتحها وبالذال المعجمة ويجوز إهمالها) زمن قطع ثمر النخل .

(٣) رواه البخارى فى الأطعمة ، ومسلم فى الإيمان .

أبداً . فالأشياء المحسة لا يدخلها إيمان ؛ لأنها مشهودة . وعناصر الإيمان فى هذه الآية هى :

إيمان بالله وهو غيب . وإيمان بالملائكة وهى غيب من خلق الله ، ولو لم يبلغنا الله أن له خلقاً هم الملائكة لما عرفنا ، إن الحق أخبرنا أنه خلق الملائكة وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم غيب ، ولولا ذلك لما عرفنا أمر الملائكة إيمان بالكتب والرسل .

وقد يقول قائل : هل الرسل غيب ؟ وهل الكتب السماوية غيب ؟ إن الرسل بشر ، والكتب مشهودة . ولمثل هذا القائل نقول : لا ، لا يوجد واحد منا قد رأى الكتاب ينزل على الرسول ، وهذا يعنى أن عملية الوحى للرسول بالكتاب هى غيب يعلمه الله ويؤمن به المؤمنون .

وكيف نؤمن بكل الرسل ولا نفرق بين أحد منهم ؟ . ونقول : إن الرسل المبلغين عن الله إنما يبلغون منهجاً عن الله فيه العقائد التى لا تختلف باختلاف العصور ، وفيه الأحكام التى تختلف باختلاف العصور ومواقع القضايا فيها .

إذن فالأصل العقدى فى كل الرسالات أمر واحد ، ولكن المطلوب فى حركة الحياة يختلف ؛ لأن أقضية الحياة تختلف ، وحين تختلف أقضية الحياة فإن الحق سبحانه ينزل التشريع المناسب ، لكن الأصل واحد والبلاغ من خالق لا إله إلا هو ، ولذلك يأتى القول الحكيم : « لا نفرق بين أحد من رسله » فنحن لا نفرق بين الرسل فى أنهم يبلغون عن الله ما تتفق فيه مناهج التبليغ من ناحية الاعتقاد ، وما تختلف من ناحية الأحكام التى تناسب أقضية كل عصر .

وبعد ذلك يقول الحق : « وقالوا سمعنا وأطعنا » إذن السماع هو بلوغ الدعوة ، والطاعة هى انفعال بالمطلوب ، وأن يمتثل المؤمن أمراً ويمتثل المؤمن نهياً فى كل أمر يتعلق بحركة الكون . فالذين يريدون أن يعزلوا الدين عن حركة الحياة يقولون : إن الدين يهتم بالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج . وبعد ذلك يحاولون عزل حركة الحياة عن الدين .

لهؤلاء نقول : أنتم تتكلمون عما بلغكم من دين لم يجيء لينظم حركة الحياة ، وإنما جاء ليعطى الجرعة المفقودة عند اليهود وهى الجرعة الروحية ، لكن الدين الإسلامى جاء خاتماً للأديان منظماً لحركة الحياة ، فكل أمر فى الحياة وكل حركة فيها داخلة فى حدود الطاعة . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم ، نجد القول الحكيم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن الحق سبحانه يأمر المؤمنين ويخرجهم من حركة من حركات الحياة إلى حركة أخرى ، فهو لم يأخذهم من فراغ ، إنما ناداهم لإعلان الولاء الجماعى ، وهو إعلان من كل مؤمن بالعبودية لله أمام بقية المخلوقات . وبعد أن يقضى المؤمنون الصلاة ماذا يقول لهم الحق سبحانه ؟ يقول لهم :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فالانتشار فى الأرض هو حركة فى الحياة ، تماماً كما كان النداء إلى السعى لذكر الله . وهكذا تكون كل حركة فى الحياة داخلة فى إطار الطاعة ، إذن « سمعنا وأطعنا » أى سمعنا كل المنهج ، ولكن نحن حين نسمع المنهج ، وحين نطيع فهل لنا قدرة على أن نطيع كل المنهج أو أن لنا هفوات ؟.

ولأن أحداً لن يتم كل الطاعة ولنا هفوات جاء قوله الحق : « غفرانك ربنا وإليك المصير » فالغاية والنهاية كلها عائدة إليك ، وأنت الإله الحق ، لذلك فنحن العباد نطلب منك المغفرة حتى نلقاك ، ونحن آمنون على أن رحمتك سبقت غضبك . ويقول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ
أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا
حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ
أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٢٨٦)

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » إنّه سبحانه لم يكلفكم إلا ما هو في الوسع . لماذا ؟ لأن الأحداث بالنسبة لعزم النفس البشرية ثلاثة أقسام : القسم الأول : هو ما لا قدرة لنا عليه ، وهذا بعيد عن التكليف . القسم الثانى : لنا قدرة عليه لكن بمشقة أى بجهد طاقتنا قليلا . القسم الثالث : التكليف بالوسع . إذن « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » أى أن الحق لا يكلف النفس إلا بتكليف تكون فيه طاقتها أوسع من التكليف ، كلف الحق كل مسلم بالصلاة خمسة فروض كل يوم ، وتملأ أوقاتها بالصلاة وكان من الممكن أن تكون عشرة ، بدليل أن هناك أناساً تتطوع وهو سبحانه كلف كل مسلم بالصوم شهراً ، ألا يوجد من يصوم ثلاثة أشهر ؟ ومثل هذا فى الزكاة ؛ فهناك من كان يخرج عن ماله كله لله ، ولا يقتصر على ما يجب عليه من زكاة .

إذن فهذا فى الوسع ، ومن الممكن أن تزيد ، إذن فالأشياء ثلاثة : شىء لا يدخل فى القدرة فلا تكليف به ، شىء يدخل فى القدرة بشىء من التعب ، وشىء فى الوسع ، والحق حين كلف ، كلف ما فى الوسع . ومادام كلف ما فى الوسع فإن

تطوعت أنت بأمر زائد فهذا موضوع آخر « فمن تطوع خيراً فهو خير له » مادمت تتطوع من جنس ما فرض .

إذن فالتكليف فى الوسع وإلا لو لم يكن فى الوسع لما تطوعت بالزيادة . فسبحانه يقول : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ويأتى بعد ذلك ليعلمنا فيقول : « ربَّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربَّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، وهو القائل : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » إذن ـ سبحانه ـ يكلفنا بما نقدر عليه ونطيقه .

فقد روى أن الله حينما سمع رسوله وسمع المؤمنين يقولون : « ربّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا » قال سبحانه : قد فعلت .

وعندما قالوا : « ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » قال سبحانه : قد فعلت . ولم يكلفنا سبحانه إلا بما فى الوسع ، وهو القدر المشترك عند كل المؤمنين . وهناك أناس تكون همتهم أوسع من همة غيرهم ، ومن تتسع همته فإنه يدخل بالعبادات التى يزيد منها فى باب التطوع ، ومن لا تتسع همته فهو يؤدى الفروض المطلوبة منه فقط . وعندما يطرأ على الإنسان ما يجعل الحكم فى غير الوسع ؛ فإن الله يخفف التكليف ؛ فالمسافر تقول له الشريعة : أنت تخرج عن حياتك الرتيبة ، وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مستقر ، لذلك يخفف الحق عليك التكليف ؛ فلك أن تفطر فى نهار رمضان ، ولك أن تُقصر الصلاة .

والحق سبحانه يعلم أن الوسع قد يضيق لذلك فإنه ـ جل شأنه ـ يخفف حكم التكليف ويمنح الرخص عند ضيق الوسع ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

كانت النسبة فى القتال قبل هذه الآية هى واحداً لعشرة ، وخففها الحق وجعلها

واحداً إلى اثنين لأن هناك ضعفا ، وهكذا نرى أنه سبحانه سيخفف التكليف إذا ما زاد عن الوسع . وكثير من الناس يخطئون التفسير ؛ فيقولون عن بعض التكاليف : إنها فوق وسعهم ولهؤلاء نقول : لا . لا تحدد أنت الوسع ، ثم تقيس التكليف عليه ، بل انظر هل كلفك أو لم يكلفك ؟ فإذا كان قد كلفك الحق فاحكم بأنه كلفك بما فى الوسع ، وكل تكاليف الرحمن تدخل فى الوسع « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

و« لها » تفيد الملكية والاختصاص وهى ما تُفيد وتُكْسِبُ النفسَ ثوابا ، و« عليها » تفيد الوزر ، ونلاحظ أن كل « لها » جاءت مع « كسبت » ، وكل « عليها » جاءت مع « اكتسبت » إلا فى آية واحدة يقول فيها الحق :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا وقفة فى الأسلوب ؛ لأن « كسب » تعنى أن هناك فرقاً فى المعالجة الفعلية الحدثية بينها وبين كلمة « اكتسبت » ، لأن « اكتسب » فيها « افتعل » أى تكلف ، وقام بفعل أخذ منه علاجاً ، أما « كسب » فهو أمر طبيعى إذن فـ« كسب » غير « اكتسب » وكل أفعال الخير تأتى كسباً لا اكتساباً .

مثال ذلك عندما ينظر الرجل إلى زوجته ، ويرى جمالها ، فهل هو يفتعل شيئاً ، أو أن ذلك أمر طبيعى ؟ إنه أمر طبيعى ، ولكن عندما ينظر الرجل إلى غير محارمه فإنه يرقب هل يرى أحد النظرة ؟ وهل رآه أحد من الناس ؟ وهل سينال سخرية واستهزاء على ذلك الفعل أو لا ؟ لماذا ؟ لأنه ارتكب عملاً مفتعلاً .

مثال آخر ، إنسان يأكل من ماله ، أو من مال أبيه ، إنه يأكل كأمر طبيعى ، أما من يدخل بستاناً ويريد أنْ يسرق منه فهو يتكلف ذلك الفعل ، ويريد أن يستر نفسه ، فصاحب الشر يفتعل ، أما صاحب الخير فإن أفعاله سهلة لا افتعال فيها . . فالشر هو الذى يحتاج إلى افتعال .

والمصيبة الكبرى ألا يحتاج الشر إلى افتعال ؛ لأن صاحبه يصير إلى بلادة الحس الإيماني ، وتكون الشرور بالنسبة إليه سهلة ؛ لأنه تعود عليها كثيراً ، ويقول الحق : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » إن الخطيئة تحيط به من كل ناحية ، ولم يعد هناك منفذ ، وهو لا يفتعل حتى صارت له ملكة في الشر ؛ فاللص مثلاً في بداية عمله يخاف ويترقب ، لكن عندما تصبح اللصوصية مهنته فإنه يحمل أدوات السرقة ويصير حسه متبلداً .

ففي المرحلة الأولى من الشر يكون أهل الشر في حياء من فعل الشر ، وذلك دليل على أن ضمائرهم وقلوبهم مازال فيها بعض من خير ، لكن عندما يعتبرون الشر حرفة وملكة فهنا المصيبة ، وتحيط بكل منهم خطيئته وتطوقه ولا تجعل له منفذاً إلى الله ليتوب .

فالذي يلعب الميسر ، أو طوقته خطيئة الفحش قد يقول فرحاً : « كانت سهرة الأمس رائعة » ، أما الذي يرتكب الخطأ لأول مرة فإنه يقول : « كانت ليلة سوداء يا ليتها ما حدثت » ، ويظل يؤنب نفسه ويلومها ؛ لأنه تعب وأرهق نفسه ؛ لأنه ارتكب الخطأ .

إذن فقول الحق : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » يوضح لنا أن فعل الشر هو الذي يحتاج إلى مجهود ، فإن انتقلت المسألة من اكتسبت إلى كسبت فهذه هي الطامة الكبرى ، ويكون قد أحاطت به خطيئته . ويكون على كل نفس ما اكتسبت . والعاقل هو من يكثر ما لنفسه ، لا ما عليها ؛ لأن الذي يقول ذلك هو الحق العالم المالك الذي إليه المصير ، فليس من هذا الأمر فكاك . وبعد ذلك يقول الحق على لسان عباده المؤمنين : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، ولقائل أن يقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم طمأننا ، فقال : (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه)[1] .

فكيف يأتي القرآن بشيء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعو به الناس ربهم ليرفعه عنهم ؟ .

---

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير عن ثوبان .

على مثل هذا القائل نرد : هل قال لك أحد : إن رفع الخطأ والنسيان والاستكراه كان من أول الأمر ؟. لعل الرفع حدث بعد أن دعا الرسول والسابقون من المؤمنين ، فما دام قد رُفِع - بضم الراء وكسر الفاء وفتح العين - فمعنى ذلك أنه كان موجوداً ، إذن فلا يقولن أحد : كيف تدعو بشيء غير موجود . أو أن ذلك يدل على منتهى الصفاء الإيماني ، أي الله يجب ألاّ يُعصى إلا خطأً أو نسياناً ، وأن الله لا يصح ولا يستقيم أن يُعصى قصداً ؛ لأن الذى يعرف قدر الله حقاً ، لا يليق منه أن يعصى الله إلا نسياناً أو خطأً ؛ لأن الخالق هو المنعم بكل النعم ، وبعد ذلك كلفنا ، وكان يجب ألا نقصد المعصية . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى قد سمى ما حدث من آدم معصية مع أنه يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

وسمى الله النسيان فى قصة آدم معصية : « وعصى آدم ربه فغوى » فكان النسيان أولاً معصية ، ولكن الله أكرم أمة محمد ، فرفع عنها النسيان . وفى مسألة آدم هناك ملحظ يجب على المؤمن أن يتنبه إليه ؛ فآدم خلِق بيد الله ، ونحن مخلوقون بقانون التكاثر ، وآدم تلقى التكليف من الله مباشرة وليس بواسطة رسول ، وكُلِّف بأمر واحد وهو ألا يأكل من الشجرة .

فإذا كان آدم مخلوقاً من الله مباشرة ومكلفاً من الله مباشرة ، ولم يكلف إلا بأمر واحد وهو ألاّ يقرب هذه الشجرة ، ولم تكن هناك تكاليف كثيرة فماذا نسى ؟ وماذا تذكر ؟ إنها معصية إذن . لقد كان النسيان بالنسبة لآدم معصية ؛ لأنه مخلوق بيد الله .

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

لذلك فلم يكن من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد ، وما كان يصح له أن ينسى ، ولعلّ سيدنا آدم نَسِىَ لحكمة يعلمها الله رُبما تكون ليعمر الأرض التى جعله الله خليفة فيها ؛ أما بالنسبة لأمة محمد فحينها نقول : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو

أخطأنا ، فكأننا يارب نقدرك ، حق قدرك ، ولا نجترىء على عصيانك عمدا ، وإن عصينا فإنما يكون العصيان نسياناً أوْ خطأ ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى .

ولكن ما النسيان ؟ وما الخطأ ؟

أولاً فيه « أخْطَأ » وفيه « خَطِىءَ » و« الخِطْء » لا يكون إلا إثما ؛ لأنه تعمد ما لا ينبغى ، فأنت تعلم قاعدة وتخطىء ، والذى أخطأ قد لا يعرف القاعدة ، فأنت تصوب له خطأه لأنه حاد عن الصواب .

ومثال ذلك : عندما تتعلم فى المدرسة أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، وفى وسط السنة يصححون لك القاعدة حتى تستقر فى ذهنك ، إنما فى أيام الامتحان أيصحح لك المدرس أم يؤاخذك ؟ إنه يؤاخذك ؛ لأنك درست طوال السنة هذه القاعدة ، إذن ففيه خَطِىء وفيه أخطأ ، فأخطأ مرة تأتى عن غير قصد ؛ لأنه لا توجد قاعدة أنا خالفتها ، أو لم أعرف القاعدة وإنما نطقت خطأ ؛ لأنهم لم يقولوا لى ، أو قالوا لى مرة ولم أتذكر ، أى لم تستقر المسألة كملكة فى نفسى ؛ لأن التلميذ يخطىء فى الفاعل والمفعول مدة طويلة ، وبعد ذلك ينضج وتصير اللغة ملكة فى نفسه إن كان مواظبا على صيانتها .

كان التلميذ فى البداية يقول : قطع محمد الغصن ، ولا يقولها مُشَكَّلةً ولكن يسكن الآخر فى نهاية نطقه لاسم محمد ، وساعة يتذكر القاعدة ينطقها « محمد » بالرفع وينطق « الغصن » بالنصب لماذا ؟ لأنه ترد ثلاث قواعد على ذهنه ، هذه فاعل والفاعل حكمة الرفع ، فهى مرفوعة ، فهو يمر بقضية عقلية ، لكن بعدما يمر عليها يقرأها صحيحة وقد لا يتذكر القاعدة ، فقد صارت المسألة ملكة لغوية عنده ، هذه الملكة اللغوية مثلما نقول : « صارت آلية » .

ومثال ذلك الصبى الذى يتعلم الخياطة ، انظر كم من الوقت يمر ليتعلم كيف يمسك بخيط ليدخله فى سم الإبرة ، وقد يضربه معلمه أكثر من مرة ليتعلمها ؛ وفتلة الخيط تنثنى منه لأنها طويلة فيقصرها ثم لا تدخل فى العين فيبرمها لتدخل ، إنه يأخذ وقتا كثيرا ثم يعمل الغرزة فتخرج غير منتظمة وبعد ذلك يظل مدة ، ثم يفعل كل .

هذه الأعمال بتلقائية وهو يتكلم مع غيره ؛ لأن هذه الأعمال صارت ملكة ذاتية أى عملاً آليًا .

والتدريب على العمل الذهنى ـ حسب قواعد محددة مثل تعلم اللغة ـ نسميه ملكة . أما التدريب على عمل الجوارح ـ مثل إدخال الخيط فى سم الإبرة ـ نسميه آلية .

وعلى سبيل المثال فى العمل الذهنى عندما تسأل سؤالاً فى الفقه لطالب فى الأزهر فإنه يحتار قليلا إلى أن يتعرف على الباب الذى فيه إجابة للسؤال ، أما إذا سألت السؤال نفسه لعالم مدرب فبمجرد أن توجه له السؤال فإنه يقول لك الحكم والباب الذى فيه هذا الحكم ، لقد صار الفقه بالنسبة للعالم ملكة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » والإصر هو الشىء الثقيل الذى يثقل على الإنسان ، ومثال ذلك الإصر الذى نزل على اليهود « إن أردتم التوبة فاقتلوا أنفسكم أو تصدقوا أو زكوا بربع أموالكم » لكن الله لم يعاملنا كما عامل الأمم السابقة علينا ، وعندما نقول : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » فنحن نصدق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله نعم »[1] ومعنى قال الله نعم أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة .

أى أن الله لن يحملنا ما لا طاقة لنا به . وعندما نقول : « واعف عنا » فنحن نتوجه إلى الله ضارعين : أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أن نؤدى حقك كاملاً ، ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا .

ومعنى العفو محو الأثر ، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة ، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر . كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب .

وعندما تقول : « واغفر لنا » فأنت تعرف أن من مظاهر التكوين البشرى النية

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة .

التى تريد أن تحول العزم إلى حيز السلوك والانفعال النزوعى ؛ فالمسألة تحتاج منك إلى تدريب ، ومثال ذلك ، عندما يذنب واحد فى حقك فلك أن ترد عليه الذنب بالذنب ، ولك أن تكظم الغيظ ، لكن يظل الغيظ موجوداً وأنت تحبسه ، ولك أن تعفو .

لكن ماذا عن مثل هذا الأمر بالنسبة للخالق الذى له كمال القدرة ؟ إن الله قد لا يعذب العبد المذنب ولكنه قد يظل غاضبا عليه ، ومن منا قادر على أن يتحمل غضب الرب ؟ لذلك نطلب المغفرة ، ونقول : « واغفر لنا وارحمنا » فنحن ندعوه سبحانه ألا يدخلنا فى الذنب الذى يؤدى إلى غضبه ـ والعياذ بالله ـ علينا . فالعفو هو أن نرتكب ذنبا ونطلب من الله المغفرة ، ولكن الرحمة هى الدعاء بألا يدخلنا فى الذنب أصلا .

وعندما يقول الحق : « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » فهذا اعتراف بعبوديتنا له ، وأنه الحق خالقنا ومتولى أمورنا وناصرنا ، ومادام الحق هو ناصرنا ، فهو ناصرنا على القوم الكافرين ، فكان ختام سورة البقرة منسجمًا مع أول سورة البقرة فى قوله : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » .

فى أول السورة ضرب الله المثل بالكافرين والمنافقين .. وفى ختامها يقول الحق دعاء على لسان المؤمنين : « فانصرنا على القوم الكافرين » هذا القول يدل على استدامة المعركة بين الإيمان والكفر ، وأن المؤمن يأخذ أحكام الله دائماً لينازل بها الكفر أيان وُجد ذلك الكفر ، ويثق المؤمن تمام الثقة أن الله متوليه ؛ لأن الله مولى الذين آمنوا ، أما الكافرون فلا مولى لهم . فإذا كان الله هو مولى المؤمن ، وإذا كان الكافر لا مولى له ، فمعنى ذلك أنه يجب أن تظل المعركة بين المؤمن والكافر قائمة ، بحيث إذا رأى المؤمن اجتراءً على الإسلام فى أى صورة من صوره فليثق بأن الله ناصره ، وليثق بأن الله معه ، وليثق المؤمن أن الله لا يطلب منه إلا أن ينفعل بحكمه وتأييده بالنصر ؛ لأنه هو الذى يغلب فهو القائل جل وعلا : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » .

يجب أن تظل دائماً مؤمناً متيقظاً لعملية الكفر فى أى لون من ألوانها ؛ فهذا الكفر بعملياته يريد أن يشوه حركة الحياة وأن يتعب الكون ، وأن يجعل القوانين الوضعية البشرية هى المسيطرة ، كما يجب عليك أيها المؤمن أن تكون من المتقين الذين استهل بهم الله سورة البقرة ، وبعد ذلك تسأل الله أن ينصرك دائماً على القوم الكافرين . هذا هو مسك الختام من سورة البقرة « فانصرنا على القوم الكافرين » .

وختام السورة بهذا النص يوحى بأن الذى آمن يجب أن يعدى إيمانه بربه إلى الخلق جميعاً ، حتى تتساند حركة الحياة ، ولا توجد فيها حركة مؤمن على هدى لتصطدم حركة كافر على ضلال ؛ لأن فى ذلك إرهاقاً للنفس البشرية ، وتعطيلاً للقوى والمواهب التى أمد الله بها ذلك الإنسان الذى سخر من أجله كل الوجود ، فلا يمكن أن يعيش الإنسان الذى سوّده الله وكرّمه على سائر الخلق إلا فى أمان واطمئنان وسلام وحركة تتعاون وتتساعد لتنهض بالمجتمع الذى تعيش فيه نهضة عمرانية تؤكد للإنسان حقاً أنه هو خليفة الله فى الأرض .

ولا يكتفى الإيمان منا بأن يؤمن الفرد إيماناً يعزله عن بقية الوجود ، لأنه يكون فى ذلك قد خسر حركة الحياة فى الدنيا ، والله يريد له أن يأخذ الدنيا تخدمه كما شاء الله لها أن تكون خادمة ، فحين يعدى المؤمن إيمانه إلى غيره ينتفع بخير الغير ، وإن اكتفى بإيمان نفسه فقط وترك الغير فى ضلالة ، انتفع الغير بخير إيمانه وأصابته مضرة الكافر وأذاه .

إذن فمن الخير له أن يؤمن الناس جميعاً ، ويجب أن يعدى ذلك الإيمان إلى الغير . ولكن الغير قد يكون منتفعاً بالضلال ؛ لأنه يؤيد به طغيانه ، عندئذ تنشأ المعركة ، تلك المعركة التى غاية كل من دخل فيها أن ينتصر ، فيعلمنا الله أن نطلب النصر على الكافرين منه ؛ لأن النصر على الكافرين لا يعتبر نصراً حقيقيا إلا إن أصّل صفات الخير فى الوجود كله ، وحين تتأصل صفات الخير فى الوجود كله يكون المؤمن قد انتصر بحق .

وحين يطلب منا الله أن نسأله أن ينصرنا لابد أن نكون على مطلوب الله منا فى المعركة ، بأن نكون جنوداً إيمانيين بحق . وقد عرفنا أن المؤمنين حين يدخلون فى

معركة مع غيرهم يستطيعون أن يجددوا مركزهم الإيمانى من غاية المعركة . فإن انتهت المعركة بنصرهم وغلبتهم علموا أنهم من جنود الله ، وإن هُزموا وغُلبوا فليراجعوا أنفسهم ؛ لأن الله أطلقها قضية إيمانية فى كتابه الذى حفظه فقال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فإن لم نغلب فلننظر فى نفوسنا : ما الذى أخللنا به من واجب الجندية لله . وحين يعلمنا الحق أن نقول : « فانصرنا على القوم الكافرين » ، أى بعد أن أخذنا أسباب وجودنا من مادة الأرض المخلوقة لنا بالفكر المخلوق لله ، نعمل فيها بالطاقة المخلوقة لله ، وحينئذ نكون أهلاً للنصر من الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد مد يده بأسباب النصر :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

حينئذ لا تخافون أبداً ؛ لأن لله جنوداً لم تروها ، ولا يتدخل الله بالجنود غير المرئية لنا إلا إذا استنفدنا نحن أسباب الله الممدودة لنا .

وحين يختم الحق سبحانه وتعالى سورة البقرة وهى الزهراء الأولى لتأتى بعدها الزهراء الثانية وهى سورة آل عمران نجد أن هذا هو الترتيب القرآنى (الآن) وهو ليس على ترتيب النزول الذى حدث ، فللقرآن ترتيبان : ترتيب نزولى حين نزلت الآيات لتعالج حدثاً وقع للأمة المسلمة فى صراعها مع الكافرين بربهم ، وفى تربيته لنفوسهم ، فكانت كل آية تأتى لتعالج حادثة . والأحداث فى الوجود إنما تأتى على أيدى البشر ، فليس من المعقول أن تنزل آيات من القرآن تعالج أحداثا أخرى لا صلة بينها وبين ما يجرى من أحداث فى المجتمع الإسلامى أو ما ينشأ فى الكون من قضايا .

إذن فلا بد أن توجد الأحداث أولا ، ويأتى بعدها النص القرآنى ليعالج هذه

الأحداث ، ولكن بعد أن اكتمل الدين كما قال الله :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

جاء الترتيب الذى يرتب القضايا ترتيباً كلياً ، لأنه عالجها من قبل علاجا جزئيا . فحين نقول:إن هذه السورة نزلت بعد كذا ، أو فيها آية كذا ، نزلت بعد كذا ، ونجد أن ذلك يختلف عن النسق النزولى نعلم أن الله سبحانه وتعالى فى كتابه ترتيبين :

الترتيب الأول : حسب النزول .

والترتيب الثانى : الذى وُجد عليه القرآن الآن وتمت به كلمة الله فى خدمة الهداية الإيمانية وهذا الأخير من عند الله أيضا .

